بسم الله الرحمن الرحيم

[تفريغ المجلس ٣١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا- أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

كنا شرعنا يوم أمس في الكلام على الحديث التاسع عشر من أحاديث الأربعين النووية، وهو حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الحديث التاسع عشر

عَنْ أَبِي العَبَّاسِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا قالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: { يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ}.

رواه التِّرمِذِيُّ، وقال: حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ. [رواه الترمذي ٢٥١٦]

وفي رواية غيرِ التِّرمذِيِّ: {احْفَظِ اللّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}.

[رواه أحمد في مسنده ٢٨٠٣]

وكنا ذكرنا بعض الفوائد من أول هذا الحديث، انتهينا عند قوله (احفظ الله يحفظك)، وذكرنا حفظ العبد لله ﷻ، وحاصله هو القيام بطاعته وتقواه وعبادته، وأن يقف عند الأوامر فيفعلها، وعند النواهي فيجتنبها، وأشرنا إلى بعض ما جاء في النصوص ذكره من الحفظ، كحفظ الأيمان، وأيضا في الحديث كحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، والحفاظ على الوضوء والصلاة والصيام والزكاة وغيرها من الأعمال.

[حفظ الله لعبده في أمور دينه]

وقوله (يحفظك) حفظ الله للعبد يكون على قسمين: حفظ في أمور الدنيا، وهذا أشرنا إليه يوم أمس، وحفظ ثان وهو الأنفع ألا وهو الحفظ في أمور الدين، أن يحفظ الله ﷻ عبده في أمور دينه، وحفظ الله ﷻ للعبد في دينه هو أن يوفقه للهداية، وأن يثبته، وأن يرشده للطريق الصحيح والصراط السوي المستقيم، وأن يطهر قلبه من الشبهات والشهوات، فحفظ الله ﷻ لعبده هو هذا، وهو النوع الثاني: حفظ في أمور دينه، بتثبيته وتوفيقه، وإرشاده وهدايته هداية الإرشاد، وهداية التوفيق والإلهام، قال ﷻ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾العنكبوت.

فمن حفظ الله ﷻ حفظه الله تبارك وتعالى، وثبته، ووفقه لسلوك الصراط المستقيم، والثبات على الدين القويم، وقد كان السلف يرجون حفظ الله ﷻ لِما يحفظونه، فعلموا أنهم حفظوا الله تبارك وتعالى، فكانوا يرجون حفظ الله ﷻ لهم، فكان أحدهم يرجو أن يحفظه الله، وقد صام لله ﷻ ثمانين رمضان، وآخر يقول مضت عليه أربعون سنة يختم القرآن كل ليلة، وآخر يختم القرآن وهو في آخر سكراته، وآخر مضت عليه أربعون سنة ما فوّت تكبيرة الإحرام، وآخر لم يُأذن إلا وهو في المسجد ... إلى غير ذلك من الأعمال التي كانت من تمام حفظ الله ﷻ، فكانوا يرجون من ذلك أن يحفظهم الله تبارك وتعالى، فمن حفظ الله حفظه.

وذكر في بعض الآثار أنه إذا مات ميت وبعث من قبره يقال (**شمّ رأسه، فإذا فيه القرآن، وشم قلبه، فإذا فيه الصيام، ونيات الخير، وأعمال الصلاح**) ويقال (**شم قدميه، فإذا فيها القيام**)[1] ومثل ذلك في سائر

[1] ينسب للسلف وليس من المرفوع.

الأعضاء، فمن حفظ الله حفظه في دنياه، وحفظه أيضا في دينه، وأعظم شيء وأشده يلقاه الإنسان شدة الموت، فمن كان يرجو أن يحفظه الله فيها وعندها فليحفظ الله في رخائه، في دنياه، بأن يطيع الله ﷻ وأن يحفظ الله تبارك وتعالى بامتثال الأمر، واجتناب النهي.

وأعظم شيء لا بد أن تحفظه هو ما جاء في حديث النبي ﷺ (من ضمن لي) -وفي رواية (من حفظ)- (ما بين لحييه، وما بين رجليه ضمنت له الجنة)، أن يحفظ لسانه وأن يحفظ فرجه، فهذا من أعظم الأمور التي يحفظ بها العبد ربه، وهذا يدخل فيه كثير من الأمور، وفي مقدمتها حفظ الاعتقاد، والتوحيد الخالص لله ﷻ، فأعظم شيء وأشده الموت، وإذا حفظ العبد ربه رجا أن يحفظه الله ﷻ عند ذلك وما بعده أشد، فإن كان مؤمنا خيرا لقي الخير، وإن كان العكس فبالعكس، ولهذا جاء في بعض الآثار -كما ذكرت- (**يقال شم رأسه، شم قلبه، شم قدميه، شم يديه** ..) وهكذا، فما كانت تلك الأعضاء من سمع وبصر ونطق وشم وبطش وخطى، وفكر، وعمل، وقول، وغيرها لم تكن إلا في طاعة الله ﷻ، فلا تجد إلا ما هو خير، والجزاء من جنس العمل ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا...﴿١٦٠﴾﴾الأنعام، فلا يجد إلا خيرا، ويوفقه الله تعالى، ويحفظه، ولهذا قال ﷻ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾إبراهيم، ولهذا تجد أكثر ما يختم للإنسان على ما كان عليه، وعلى ما اعتاده، فمن اعتاد قراءة القرآن وسماع الذكر، والقرآن، وسماع العلم، وعود لسانه بذكر الله ﷻ وسماعه، فإنه يختم له بذلك -بإذن الله ﷻ- ومن كان غير ذلك فبما كان يعتاده، والوقائع في ذلك كثيرة.

[معية الله تعالى الخاصة والأخص!]

قال ﷺ (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك) أي أمامك، والمعنى أنه معك، والمراد بالمعية هنا: المعية الخاصة، وهي معية التأييد، والتوفيق، ومعية النصرة، والإعانة، فهي خاصة، وفيها يقول ﷻ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾النحل، ﴿..وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾البقرة، فهذه معية خاصة خصها الله ﷻ بأهل الإيمان، وبأهل التقوى، والإحسان، والصلاح، والعبادة، وهذه المعية

كون الله ﷻ مع العبد أي يناصره وينصره، ويؤيده ويوفقه، ويحفظه ويكلأه برعايته، وييسر له الخير، فهذه معية خاصة.

وتوجد معية أخص من ذلك، خصها الله ﷻ ببعض عباده ممن سماهم، قال ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾طه، أي مع موسى وهارون، وأيضا ذكر معيته لنبينا محمد ﷺ.

وأما المعية العامة فهي تعم الخلق جميعا، وهي معية علم وإحاطة، وإدراك وقدرة، ﴿...مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ.. ٧﴾المجادلة، معهم أي بعلمه وسلطانه، وإحاطته، وقدرته، فالله مع الجميع، هذه المعية العامة.

وأما المعية الخاصة فهذه معنى زائد، (احفظ الله تجده تجاهك) أي أمامك ومعك، ومن تمام معيته حفظه لك.

[من لا يسأل الله يغضب عليه]

(إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله) وهذا معنى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾الفاتحة، وقد قال ﷻ ﴿..وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ.. ٣٢﴾النساء، وقال ﷺ (ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى شسع نعله إذا انقطع)[1]، وقال ﷺ (من لا يسأل الله يغضب عليه)[2] وقال ﷺ (الدعاء هو العبادة)[3]، وقال ﷺ (لا يرد القضاء -أو قال القدر- إلا الدعاء)[4] وقال ﷻ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ.. ٦٠﴾غافر، وقال ﷻ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ... ١٨٦﴾البقرة، فإنما يسأل العبد ربه، وكان ﷺ يبايع الصحابة على أن لا يسألوا أحدا شيئا، كما جاء في حديث عبادة بن الصامت، وأنه ﷺ قال (بايعوني) قالوا: قد بايعناك، قال (بايعوني) قالوا: قد

[1] أخرجه الترمذي (٣٦٠٤)، والبزار (٦٨٧٦)، وأبو يعلى (٣٤٠٣).
[2] أخرجه الترمذي (٣٣٧٣) واللفظ له، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وأحمد (٩٧١٩)). صححه الألباني في (صحيح الترمذي) بنفس الرقم.
[3] رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والحاكم (٦٦٧/١). من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه. والحديث سكت عنه أبو داود. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال البغوي في ((شرح السنة)) (١٥٨/٣): حسن لا يعرف إلا من حديث ذر. وقال النووي في ((الأذكار)) (٤٧٨): إسناده صحيح. وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (٦٤/١): إسناده جيد. وقال الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)): صحيح.
[4] أخرجه الترمذي (٢١٣٩) باختلاف يسير، والبزار (٢٥٤٠)، والطبراني (٢٥١/٦) (٦١٢٨)، السلسلة الصحيحة (١٥٤).

بايعناك، قال (بايعوني) قالوا: قد بايعناك، قال (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا) قال: وذكر كلمة أسرّها وقال (ولا تسألوا الناس شيئا)[1] فكان أحدهم إذا سقط سوطه لا يسأل أحدا أن يناوله إياه، وإنما يسأل العبد ربه ﷻ، ولا يسأل غيره.

قالوا: لأن سؤال الناس فيه إذلال للنفس، وتحقير لها، وقال بعض السلف **(عجبت ممن يسأل من يغلق بابه عليك، ويشمئز من سؤالك، وإذا جئته أظهر فقره وحاجته، وكيف تترك من ينتظر سؤالك، وقد فتح أبواب السؤال، وهو الغني وغناه مطلق، وينتظر من يسأله، وإذا جاءه أعطاه وأعطاه)**[2] قال ﷺ (ينزل الله إلى السماء الدنيا في الثلث الآخر فيقول: من يسألني فأعطيه، من يستعيذني فأعيذه، من يستغفرني فأغفر له) وفي بعض الروايات (من يتوب علي فأتوب عليه)[3] أو كما قال ﷺ.

[غنى الله ﷻ ذاتي مطلق]

ومن ذا الذي يسأل الله تعالى ولا يعطيه؟ (فإذا سألت فاسأل الله) وسؤال العبد ربه، وتذلّله له وانقياده وخضوعه وخشوعه رفعة للعبد، بخلاف سؤالك للناس، (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)، ولا تستعن بغيره، فهو القادر على كل شيء، والعبد لا ينفذ له أمر إلا بتوفيق الله، وتيسيره، وتقديره وقضائه، وإن لم يوفق الله ﷻ العبد لا يستطيع أن يقدم ولا أن يؤخر شيئا، فالعبد عاجز بنفسه، وما يفعل إلا ما يوفق له، ذلك لأن الله هو الغني الغنى المطلق، والناس فقراء إلى الله ﷻ ﴿..إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾العنكبوت، ﴿..إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٦﴾لقمان، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾فاطر، فهو الغني الغنى المطلق، وغناه ذاتي كما أن الفقر فقر العبد له ذاتي، فالعبد فقير بذاته، والرب ﷻ غني بذاته، فيلزم أن يفتقر العبد لربه، وأن يسأله صباح مساء، وأن يستعين به.

وهو معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) أي لا تحول لك من حال إلى حال، ولا قوة لك بذلك عليه، إلا بالله ﷻ، فهما أمران عظيمان، أن تسأل الله، وأن تستعين بالله، مقصد ووسيلة، المقصد أن تعبد الله

---

[1] صحيح مسلم (١٠٤٣).
[2] من موعظة وهب بن بمنبه لعطاء الخرساني، ذكره الشيخ هنا بالمعنى وأصل الموعظة في((القناعة والتعفف)) لابن أبي الدنيا (٦٧-٦٨).
[3] رواه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

ﷻ، والوسيلة أن تستعين بالله على عبادته، وهو معنى (لا ملجأ منك إلا إليك)[1]، وكان من دعائه ﷺ (اللَّهُمَّ إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك) ولهذا الفرار يكون من الله إلى الله.

[لن تُنفع أو تُضر إلا بما قضاه الله]

(فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)، وهذا الشطر هو أصل هذا الحديث، والقاعدة العظيمة فيه، وما قبله وما فيه من المعاني متفرعة عنه، أن يعلم العبد علما يقينا، أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وفي بعض الأحاديث (لا يبلغ العبد الإيمان) أي الإيمان الكامل، (حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه)[2]، فلو أن الأمة كلها اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله ﷻ لك، فإنهم لن ينفعوك إلا بما كتبه الله لك، فمهما استكثرت من المال والجاه، والسلطان، والقوة، والقدرة، والعلم ... وغيرها، فإنما تُنفع بما كتبه الله لك.

ولهذا قال بعض السلف (**عجبت ممن يخاف والله معه**) كيف تخاف والله معك، فمن كان معه الله كانت معه القوة، والقدرة، والهداية، والإرشاد، وكل معاني الخير، وكذلك الضرر، لا يستطيع أحد [في الأرض] أن يضرك أبدا، ولو اجتمع من على أقطارها، وقد ذُكر أن الحسن البصري لما كان مطاردا في زمن الحجاج، أتى بعض أصحابه فدخل بيته، فقال الحسن البصري: إذا جاؤوا رأوني، يقول صاحب البيت: ادع الله تعالى، فدعا الله ﷻ، فجاءت الجند، ودخلوا البيت، وفتشوه ثم خرجوا ولم يجدوا شيئا، فلما عادوا إلى الحجاج قالوا: ما حصلناه، قال: بلى والله كان هناك، ولكن طمس الله على أعينكم، هذا فضل الدعاء، فضل الثقة بالله ﷻ واليقين به، والتعلق بالله ﷻ والتمسك به، وأنه لا يصل إليك نفع ولا ضر إلا ما كتبه الله لك، وهو معنى الرواية الأخرى (واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك)، فهو قضاء وقدر.

---

[1] رواه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).
[2] أخرجه أحمد (٢٧٤٩٠) واللفظ له، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٢٤٦)، والبزار (٤١٠٧)، السلسلة الصحيحة (٣٠١٩).

ولهذا قال ﷺ (استعن بالله ولا تعجز، ولا تقل لشيء فاتك لو كان كذا وكذا، لكان كذا وكذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل) أو (قدّر الله وما شاء فعل)[1]، فما فاتك لم تكن لتحصل عليه، لأنه قضاء وقدر، (ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك) لأن الأمر ليس عبثا، وليس هي أمور عفوية، إنما هو قضاء وقدر، مسطر.

[رفعت الأقلام وجفت الصحف]

ولهذا قال بعد ذلك ﷺ (رفعت الأقلام وجفت الصحف) الأقلام رفعت، والصحف جفت بما كتب فيها، قال ﷺ (أول ما خلق الله القلم، قال اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن، إلى يوم القيامة)[2] رواه الإمام أحمد، وفي رواية لمسلم أن النبي ﷺ قال (إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)[3] قال ﷻ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾ الحديد، وقال ﷻ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾ يس، فكل شيء مسطر.

وفي الحديث قالوا: يا رسول الله أرأيت ما نعمل أفيما جفت فيه الأقلام وجرت به المقادير؟ أو فيما نستقبل؟ قال (بل فيما جفت فيه الأقلام وجرت فيه المقادير)، قالوا يا رسول لله ففيمَ العمل؟ قال ﷺ (اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له)، فهذا معنى قوله (رفعت الأقلام وجفت الصحف)[4] أي أن الله ﷻ قد قضى وقدّر كلّ شيء، وما على الإنسان إلا أن يعمل ويسعى للعمل بالهداية، والتوفيق من الله ﷻ وهذا أصل عظيم من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقضاء والقدر.

ويجب على المؤمن أن يعلم أن الله ﷻ يعلم كل شيء، فلا يستقيم إيمان العبد بالقدر إلا بأن تجتمع له هذه الأركان الأربع: أن يعتقد ويعلم أن الله ﷻ يعلم كل شيء، وأن الله ﷻ كتب كل شيء، وأن الله ﷻ

---

[1] أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩)، وأحمد (٨٧٧٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٤٥٧).
[2] رواه أبو داود (٤٧٠٠)، وابن أبي عاصم (١٠٢)، والطبراني في ((مسند الشاميين)) (٥٨/١) (٥٩)، والبيهقي (٢٠٤/١٠) (٢٠٦٦٤)، والضياء (٢٧٤/٨) (٣٣٦). والحديث سكت عنه أبو داود، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود))، وحسنه ابن عثيمين في ((مجموع الفتاوى)) (٢٠٥/٤).
[3] رواه مسلم (٢٦٥٣).
[4] رواه مسلم (٢٦٤٨).

ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله ﷻ هو خالق كلّ شيء، فهي أربعة مراتب، أو مرتبتان في كل مرتبة مرتبتان، فحاصلها أربع: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، بهذا يستقيم إيمان العبد بالقضاء والقدر، (رفعت الأقلام وجفت الصحف).

(وفي رواية غير الترمذي قال ﷺ : احفظ الله يحفظك) كالرواية الأولى، ومما ينبغي للعبد أن يدعو الله تعالى أن يحفظه وقد كان من الأذكار التي كان يقولها ﷺ عند نومه (بسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فاغفر لها) -وفي رواية (فارحمها)- (فاحفظها بما تحفظ -أو قال: كما تحفظ- عبادك الصالحين)[1]، ومن دعائه ﷺ (اللّهمَّ احفظني بالإسلام قائما، واحفظني بالإسلام قاعدا، واحفظني بالإسلام راقدا، ولا توفي في عدوا ولا حاسدا)[2] -أو كما قال ﷺ- (احفظ الله يحفظك).

(تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة) المراد بـ(تعرف على الله في الرخاء) أن تعرف الله ﷻ أن تطيعه ﷻ، أن تكون عالما به، أن تحفظه، وأن تطيعه، أن تمتثل أمره ونهيه، (تعرف إلى الله في الرخاء) أن تكون مكبا على طاعته مقبلا عليها، منشغلا بها، متفرغا لها -مع أداء ما يلزمك ويجب عليك لاشك ولا ريب- (تعرف إلى الله في الرخاء) فتعرف العبد على ربه أن يعلم به، بأسمائه، وصفاته، وأن يطيعه، وأن يتقرب إليه، وأن يعمل صالحا، وخاصة في الرخاء.

[هل يوصف الله تعالى بالمعرفة؟]

(يعرفك في الشدة) هل يوصف ﷻ بالمعرفة؟ أو يوصف بالعلم؟ يقول العلماء: يوصف الله ﷻ بالعلم، لأن العلم أرفع مرتبة من المعرفة، والمعرفة إنما تطلق وهي مسبوقة بالجهل، يقال: عرفَ لأنه كان جاهلا بالشيء ثم عرفه، هذا هو الأصل في المعرفة، فكيف قيل هنا: يعرفك في الشدة، قال بعض العلماء: (يعرفك في الشدة) أي يعلمك، والمعرفة تطلق بمعنى العلم، وإن كان العلم يتعدى إلى مفعولين، لكن قد يتعدى إلى مفعول واحد، ويكون بمعنى المعرفة، فهذا جواب.

الجواب الثاني أن معرفة الله ﷻ تليق بجلاله وعظمته، ولا تكون مسبوقة بجهل.

---

[1] صحيح مسلم (٢٧١٤).
[2] أخرجه الطبراني في ((الدعاء)) (١٤٤٥)، والحاكم (١٩٢٤)، والبيهقي في ((الدعوات الكبير)) (٢٥٣).

والجواب الثالث أن المقصود هنا الإخبار وليس الوصف، والله ﷻ قد يُخبر عليه بما لا يوصف به، كما قال ﷻ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ...﴿١٩﴾﴾الأنعام، فيخبر بأنه شيء، ولكن لا يوصف به، فهذا جواب ثالث.

[معرفة العبد لربه]

(تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) إذا اضطر بك الأمر وضاقت بك الدنيا عرفك الله ﷻ، ومعرفة العبد بربه (تعرف إلى الله) على قسمين:

١= **المعرفة الأولى**: هي التصديق به والإقرار، والإيمان والتوحيد، وهذا يشترك فيه جميع أهل الإيمان.

٢= **وأما المعرفة الثانية** من العبد لله ﷻ فهي معرفة خاصة بالتعلق به والتمسك والثقة به، وهيبته، وإخلاص العمل له ﷻ وخشيته، والخضوع له، والإذعان، والخشوع، وتعلق القلب بربه تبارك وتعالى، فهذه تزيد العبد حبا وطمعا، وتقربا إلى الله، وهي مرتبة عظيمة، مرتبة الصلحاء، والأولياء، والأتقياء، ولهذا كان الواحد منهم إن كان وحيدا لا يستوحش، لأنه ليس خاليا، بل مع ذكر الله سبحانه وتعالى، وتحميده وذكره وتسبيحه.

[معرفة الله تعالى لعبده]

(يعرفك في الشدة) معرفة الله للعبد على قسمين:

١= **المعرفة العامة وهي الإحاطة**: وهذه للجميع.

٢= **والمعرفة الخاصة وهي التي تقتضي محبة الرب لعبده**: والرضا عنه، وتيسير الخير له، فإذا ضاقت الدنيا بالعبد ونادى ربه وكان في الرخاء عارفا بربه، فإن الله ﷻ يجيب دعاءه، وفي بعض الآثار أن العبد إذا نادى ربه، قالت الملائكة (هذا صوت نعرفه) يعني هذا عبد كان يتعبد ربه في الرخاء، فإذا جاءت الشدة ودعا عُرف ذاك الصوت، أما الذي كان هاجرا لله ﷻ ولا يعرف ربه، فينادي لا يعرف ذاك الصوت.

وجاء في بعض الآثار -وفيها مقال- أن نبي الله يونس لما دعا ربه وهو في بطن الحوت قالت الملائكة (هذا صوت نعرفه يا ربنا، فقال هذا صوت العبد يونس)[1] ﷺ، لأنه كان يدعو ربه ويعبده في الرخاء، فإذا ناداه في الشدة عرفه ﷻ.

[من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه]

(تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) فينبغي أن يتجهز العبد للشدائد، بأن يتعرف على الله في الرخاء، وأعظم شدة شدة الموت، فإنه من أدركته وكان عارفا بالله في رخائه، عرفه ربه في هذه الشدة، فييسر له وييسر عليه، وتأتيه البشرى، ويستبشر، وحديث النبي ﷺ (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)[2] قالت عائشة رضي الله عنها (ما منا إلا ويكره الموت) قال **(كذلك يا عائشة، ولكن العبد المؤمن إذا كان في إقبال على الآخرة نزلت إليه الملائكة تبشره فأحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وأما الكافر والمنافق فإنه إذا جاءه الموت جاءه النذير وما ينتظره من العذاب فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه)**، ولهذا قال ﷻ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾فصلت، يبشرون بهذا عندما يأتيهم الموت، لا خوف عليكم فيما تستقبلون، ولا حزن عليكم فيما فاتكم، وفيما خلّفتم من مال وأولاد وأهل وعرض وغير ذلك.

(تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة) فكل من كان في الرخاء عليه أن يغتنم هذا الرخاء، وهذه السعة، وهذه القدرة، وهذه القوة، فيسخرها في طاعة الله ﷻ ، فإذا جاءت الشدائد عُرف صوته، وكان صوته معلوما مسموعا من قبل، فيقدّم على غيره، يعرفه في الشدة.

(واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك) هذا قد سبق.

[1] أخرجه البزار ([١٥/ ٣٤]).
[2] رواه مسلم (٢٦٥٨).

[النصر مع الصبر]

(واعلم أن النصر مع الصبر) كما قال ﷻ ﴿..كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ البقرة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ آل عمران، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ محمد، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ الشورى، فالنصر مع الصبر ﴿..وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ الطلاق.

فلا بد من الصبر على ما يصيب العبد ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ البقرة، هؤلاء الذين يصبرون على ما أصابهم، وأيضا قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ..﴿٣٥﴾﴾ الحج، وما يصيب العبد يجب عليه أن يصبر عليه، فالصبر واجب، وأرفع منه الرضا، وفي الحديث إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، (**والله عز وجل إذا أحب العبد ابتلاه**)، وفي رواية (أصاب منه) فالرضا أرفع من الصبر.

[الرضا أرفع مقاما من الصبر]

والفرق بينهما أن الصبر هو أن لا نزعج، وأن لا يتسخط للقضاء والقدر، لكن يجد ألم ما أصيبه، ويتمنى زواله مع عدم الانزعاج والسخط قولا وفعلا، وأما الرضا فهو أن ينشرح صدره، ويتسع لما أصابه، ولشدة سعة صدره وانشراحه لا يلتفت إلى الألم، ولا يدعو بزواله، مع أنه يجد ألمه، ولربما لشدة انشغاله وانشراح صدره وقبوله بما أعطاه ربه ذاك الألم الذي يجده يزول بالكلية لانشغاله بربه عنه.

وأهل الرضا يلاحظون في رضاهم ثلاثة أمور:

١= **الأمر الأول**: **عظمة المبتلي**: وهو الله ﷻ هو الذي ابتلى عبده، فيلحظون عظمته فلا يجدون للألم أثرا، وتتغلب العظمة على أثر الألم.

٢= **الأمر الثاني**: **يلاحظون ثواب الرضا وأجره عنه الله** ﷻ: فلا يجدون لهذا الألم أثرا.

٣= **والأمر الثالث**: **يلاحظون حكمة الله** ﷻ فهو الذي ابتلاه بذاك الأمر، فلا يجدون لهذا الألم أثرا.

فالرضا مرتبة أعلى وهي مستحبة مندوبة، والصبر دونها وهو واجب، (واعلم أن النصر مع الصبر) ومن صبر فاز بإذن الله ﷻ.

(وأن الفرج مع الكرب) الكرب بعده يأتي الفرج، وكلما ازداد الضيق كان الفرج بعده، ومن اللطف في اقتران الفرج مع الكرب، كون الكرب كلما اشتد وضاق بالعبد ازداد طاعة وتقربا إلى الله، فجاءه الفرج من عند الله ﷻ.

(وأن اليسر مع العسر) كما قال تبارك وتعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٦﴾الشرح، ولا يغلب عسر واحد يسرين، لأن هاهنا في الآية ذكر عسر واحد، وذكر يسران، قوله (فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا) العسر الأولى معرفة، ويسرا نكرة، (إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا) العسر الثاني هو الأول، فالأول معه يسر، والأول أيضا المكرر معه يسر آخر، فلا يغلب عسر واحد يسرين كما جاء في الأثر عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وفي الأثر أيضا: لو أن العسر لو دخل جحرا لأتاه اليسر ودخل خلفه ومن ورائه، فدائما مع العسر اليسر، لكن لابد من الصبر على المصائب، وعدم التسخط، وأفضل وأرفع منه الرضا.

هذا ما يمكن أن يذكر من بعض الفوائد من شرح الحديث.

والله تعالى أعلم.